الأدباء العرب والاحتفال بعيد النوروز

اهتم الأدباء العرب بالأعياد الفارسية إهتماماً بالغاً، فقد سجّلت كُتُب التأريخ والأدب، هذه الأعياد بصورة دقيقة، مبيّنة سُنَنها، وعادات أقوامها، وما فيها من طقوس، وصّوروها على أنّها رمز للخير والمحبّة والوفاق والحوار، ولم ينظروا إليها على أنها أعياد ليست لها صلة بالاسلام، وأنها عائدة إلى العقائد الفارسية القديمة، لذلك رووا أجمل قصائدهم في مناسباتها ، وزيّنوا بها دواوينهم وكُتبهم، ويظهر لنا جلياً من التأريخ أن عظماء المسلمين والخلفاء والسلاطين والأمراء كانوا يقيمون الاحتفالات في هذه المواسم على أنها أعياد مباركة لا أعياد لا تمتّ إلى الاسلام بصلة، وفي هذا إظهارللتفاعل الثقافي والحضاري الذي حدث بين العرب والفرس عن طريق أعيادهم، وهذا التفاعل بين الأمّتين العربية والفارسية، يُمثّل واحداً من أفضل التجارب

الإنسانية التي حصلت بين شعوب العالم، من النواحي الثقافية والحضارية والاجتماعية والسياسية والدينية، وبهذا الاتصال الروحي والعقلي، استطاعت الأمّتان أن تشيّدا صرحاً عظيماً وحضارة إنسانية نهلت منها الأمم الأخرى، ففي هذا المجال كانت تنشد المئات من القصائد الشعرية الرائعة التي يتغنّى فيها أصحابها بجمال الطبيعة، وما يواكبها من عطاء وبركة، حيث تجلّى ذلك في الأعداد الهائلة من المقطوعات النثرية، حتى أصبحت تُشكّل باباً مستقلاً من أبواب الأدب، بحيث يمكن أن يكون موضوعاً خصباً لدراسة الدارسين والباحثين، حيث يطرحون فيه نظراتهم وتحليلاتهم .

إن الصِلات الوثيقة بين العرب والأيرانيين ، تعود إلى زمن سابق على الاسلام، وذلك بسبب أواصر الجوار بين البلاد العربية وإيران، والمشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بين شعوبها، مما يؤدي إلى الترابط والتعاون بين الطرفين، ويدفع إلى تأثير الشعوب بعضها في البعض الآخر، فالأيرانيين تأثروا بالعرب، سواء في اللغة والثقافة أو في السّنن والآداب، أو في التقاليد والعادات، ومما لا شك فيه أنّ النوروز وإن كانت تمتدّ أصوله إلى أبعد من التأريخ المُسجَّل، ولكن تخلّى تدريجياً عما علَق به من آثار الزرادشتية بعد أن ارتبط بالمعاني الروحية السامية التي تصل الإنسان بما هو أسمى مما يعيش فيه، وكذلك النوروز ترك أثراً بارزاً في الأدب العربي، كما ترك العلماء والأدباء، تراثاً قيّماً من روائع الشعر والنثر، عند حلوله في كلّ عام، وهي كلّها تشهد على الاهتمام البالغ لرجال الفكر والأدب بخصوص عيد النوروز.

ومما يُجدر ذكره، إن الخلفاء العباسيين قد شاركوا في إحياء شعائر النوروز، واعتبروه عيداً رسمياً يُحتفل به كل عام، واغتنم الشعراء والخطباء حلول عيد النوروز ليشاركوا في إقامة شعائره، ومن السُنَن التي ظهرت في العصر العباسي، إشعال النار وصبّ الماء وتقديم الهدايا وإقامة مجالس الفرح، إذ بدأ الناس يوقدون النيران ليلة العيد، ويصبّون الماء في صبيحته، كما كان مُتّبعاً عند الفرس، فكانوا يُحيون الشعائر للتسلية وقضاء الوقت والسخرية، وإغتنم الشعراء فرصة إيقاد النار وصبّ الماء، ليُعبّروا عن أمانيهم وأشواقهم الصادرة من أعماق قلوبهم بصدق وصراحة وبأسلوب بسيط وجميل، فقد وصف الشاعر(كشاجم) نفسه في يوم العيد السعيد، والسُنّة فيه أن يُوقد النار ويُصبّ الماء ولكنه كان وحيداً بعيداً عن أحبائه وقلبه من الحب، كلهيب من النار شوقاً إليهم، وتفيض الدموع من عينيه لعلّها تُطفيء نار قلبه، فأنشد:

لما رأيت النوروز سُنّته

صبّ مياه وشبّ نيران

نوروز وحدي والشوق يقلقني

بنار قلبي وماء أجفان

تقديم الهدايا

إن من السُنَن الفارسية القديمة، تقديم الهدايا يوم النوروز من جميع طبقات الناس إلى بعضهم البعض الآخر، وعادت تلك السُنّة القديمة إلى الظهور في العصر العباسي، وبدأ الأمراء والشعراء والخطباء يهدون الهدايا الثمينة إلى الخلفاء، وكان الخلفاء يقابلونهم بهدايا أكثر، وكانت ذات تأثير أكبر في نفوسهم، كما قال الشاعر في وصف الهدية:

إن الهدَّية حلوةٌ

كالسَّحرِ تَجتَلِبُ قلوباً

توني البغيض من الهوى

حتّى تصّيره قريباً

وتُعيدُ مضطَغِنّ العدا

وَة بعد نقرته جسياً

وعيد النوروز، هو يوم المحبة، ولقاء الأحبة، وهو اليوم الذي تتألف فيه القلوب، وتسود المحبة بين الناس، فيتبادلون أجمل وأفضل الهدايا التي تزيد العيد بهجة وسروراً، فقد إهدى أحمد بن يوسف الكاتب إلى المأمون سفطاً من الذهب، فيه عود هندي، وكتب معها، هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العيد والسعادة فقال :

على العبدِ حقٌّ فهوَ لابدَّ فاعلِهِ

وإنْ عظِمَ المولى وجلّت فضائلُهُ

الم تَرنا نُهدي إلى الله ماله

وَإن كان عَنهُ ذا غني فهوَ قابلُهُ.

ولم ينحصر تقديم الهدايا بين الخلفاء

والـوزراء والشـعراء فقـط، وإنما كانـت هـذه السُـنّة بيـن النـاس أيضـاً، وتسـابقوا إلـى الاحتفـال بـه، وأحيـوا فيـه مـا كان معروفـاً عنـد الفـرس القدمـاء من عـادات كعـادة إيقاد النيـران وعـادة تقديـم الهدايـا.

مجالس الفرح والسرور

مـن السُـنَن الفارسـية القديمـة التـي ظهـرت فـي العصـور القديمـة، إقامـة مجالـس الفـرح، وكان الخلفـاء والشـعراء والنـاس يفرحـون بحلـول عيـد النـوروز، لِمـا يُواكبـه مـن روْعـة جمـال الطبيعـة ولِمـا يُرافقـه مـن فـرح وسـرور فـي إقامـة مجالـس الفـرح وسُـماع الأصـوات الجميلـة والعذبـة التـي كان يقدّمها المعنيـون. وهكـذا عـاد النـوروز إلـى الحيـاة ببهجـة وتجـدّد، كمـا جُـدِّد معـه تقاليـده وسُـنَنه التـي كانـت مُتَّبعـة عنـد القدمـاء، والفضـل فـي إحيـاء شـعائر النـوروز يعـود إلـى النـاس الذيـن احتفلـوا بـه واهتموا بـه وجعلـوه، رمزاً للتحالـف وشـدٍّ وثـاق الأُخـوّة بيـن الأُمّتيـن العربيـة والفارسـية.

الطابع الديني لعيد النورز

لقـد جـذب الديـن الإسـلامي، الكثيـر مـن آداب ورسـوم الحضـارات الأخـرى التـي تعامـل معهـا، كالحضـارة الفارسـية، يتعلّق بإسـتيعاب الديـن الإسـلامي للأديـان الأخـرى، وتَقبّـل العديـد مـن آدابهـم ورسـومهم، ومنحهـا طابعـاً دينيـاً ووافـق عليهـا، ولقـد سـعى العـرب منـذ البدايـة إلى جـذْب آثـار الحضارة الفارسـية، نتيجـة لتجربتهـا المشـرقة، وبنـاءاً علـى خـط سـيْر الإسـلام، واحترمـوا بعـض الرسـوم والتقاليـد الخاصـة بهـا سـواء أكانـت ذات منشـأ دينـي أو غيـر دينـي وتقبّلوهـا، حيـث قـام الفُـرْس بمنـح أعيادهـم طابعـاً إسـلامياً بنظرتهـم المسـتقبلية، ونسـبوا الحقائـق التـي حظيـت بالاهتمـام فـي الديانـة الإسـلامية إلـى النـوروز، وهكـذا كان عيـد النـوروز مـن الأعيـاد الكبـرى ومحطّ إهتمام المسـلمين فـي العهـود السـالفة.

العوامل الاجتماعية في عيد النوروز

مـن العوامـل الأخرى التي أدت إلـى الاهتمام بالأعيـاد الفارسـية، يمكـن ذكْـر العوامـل الاجتماعيـة، فلـم يتخـلَّ الفـرس عـن الكثيـر مـن عاداتهـم وتقاليدهـم، بعـد اعتناقهـم للإسـلام، بـل حافظـوا عليهـا، ورغـم أن العـرب اسـتطاعوا دخـول إيـران سـريعاً إلا أنهـم لـم يتمكنـوا مـن اسـتبدال الديـن الزرادشـتي والـذي كان رائجـاً فـي الكثيـر مـن المناطـق الايرانيـة بالاسـلام، وبقيـت النُظـم والتقاليـد الخاصـة بـه قيْـد الإجـراء، وعلى كل حـال، فقـد انتشـر الإسـلام بشـكل تدريجـي فـي بـلاد فـارس، وكلما كان الفُـرس يطّلعـون بشـكل أوسـع على تعاليمـه، كان تقدّمه يجرى بشـكل أسـرع وأسـرع، فقـد انتشـرت فعاليات مختلفـة لأتبـاع الأديـان، ولقـد كانـت الأوضاع الاجتماعيـة فـي القـرون الثلاثـة الأولـى، تُشـير إلـى النشـاطات المُلفتـة للنظـر بيـن الزرادشـتيين فـي تطبيـق الرسـوم والتقاليـد، كما كانـت تُبيّـن تغلُّـب الثقافـة الفارسـية على العربيـة، ، ومنـذ بدايـة فتـح إيـران، هاجـر الكثيـر مـن العـرب إليهـا نتيجـة لحوافـز إقتصاديـة وإجتماعيـة وسياسـية ودينيـة، وقد اعتنـق العـرب الذيـن هاجـروا إلـى الكثيـر من المناطـق الإيرانيـة بما فيهـا خراسـان، الثقافة الفارسـية التـي كانـت سـائدة أنـذاك، وتزوجوا مـن النسـاء الفارسـيات وارتـدوا الملابـس الفارسـية، وكانـوا يحتفلـون كالفـرس بأعيـاد النـوروز، حتـى أنهـم كانـوا يتكلمـون باللغـة الفارسـية.

ومـن المراسـم التـي كانـت مُتداوَلـة فـي عيـد النـوروز، إشـعال النار ورشْـق النـاس بعضهم للبعـض الآخـر بالمـاء وإضـاءة المنـازل، فقد ظلـت الثقافـة الفارسـية هـي الغالبـة، وظلت تلـك التقاليـد جـزءاً لا يتجزأ من تلـك الثقافة، ولـم يقـدر أحـد علـى منعهـا، نتيجـة لتفوق العنصـر الفارسـي.

عيد النوروز في الأدب العربي

عيـد النـوروز، هـو عيـد الطبيعـة، والطبيعـة فـي النـوروز كشـفت وجههـا وأظهـرت محاسـنها، وأبـدت طرائـف شـتى مـن زهورهـا، فللعيـون بشاشـة، وأصبحـت الأرض ضاحكة، والطيـر مسـروراً، والنبـت مخمـوراً، فاغتنـم شـعراء العـرب والفـرس قـدوم النـوروز، لكي يُنظّمـوا قصائـداً، وذلـك لأجـل تمكيـن الصلة وتوطيـد أواصـر الصداقـة، فقـد أنشـد أبـو تمـام:،

قد شَرَّد الصُبحُ هذا الليل عن أُفقِه
وسوَّغ الدّهرِ ما قد كان مِن شَرَقِه
سِبقَت إلى الخلق في النَّيروزِ عافيَةٌ
بها شَفاهُم جديدُ الدَّهرِ مِن خَلَقِه .

فقـد وصـف ابـو تمـام ،الصبـح بأنـه رمـز للضيـاء والنـور، هذا النـور قضى على الظلام والليـل، وهنّأ بمناسـبة عيـد النوروز، فأنشـد:

يَوم الثُلاثاءِ: ما يَومَ الثُلاثاءِ؟
في ذَروةٍ من ذُرى الأيامِ علياءِ
كأنّها هو في الأسبُوعِ واسطةٌ
في سمطِ دُرٍّ يُحلّي جيد حَسناءِ
ما طابق الله نيروز الامير بِهِ
الاّ لِتلقىءُ فيه كلُّ سَرّاءِ
لا سيَّما في ربيعٍ مُمرع غَدِقٍ
ما اَنفَك يُتبعُ انواءً بأنواءِ .

إكما وصـف المتنبـي، عيـد النـوروز، قائـلاً: أقبـل النـوروز تيمّنـا بطلعتـك وحقق مـرادك. حيـن وفـد عليـك ورآك. وهـذه النظـرة التـي ظفـر بهـا النـوروز منـك اليـوم إنما يتـزود بها عليـه عامـه لأنّـه لا يـزورك إلا مـرّة واحـدة فـي كل عـام، وفـي النهايـة يفارقـك وهـو آسـف محـزون، فـلا ينام ولا يُسـرّ برؤيـة غيرك حتى يـراك فانيـة، ونحـن فـي سـرور بـأرض فـارس وقـد ولـوا هـذا السـرور فـي هـذا الصبـاح، لأن النـاس يفرحـون فيـه ويمرحـون، وإن ممالـك الفـرْس قـد عظمـت هـذا اليـوم حتى حسـدته كل أيـام السّـنة لتفضيلهـم إيـاه عليهـا، ومـا لبسـنا أكاليل في هـذا اليوم حتى كسـبت الجبـال والوديـان الأكاليل مـن النبات والأزهـار.

إذ كشف المتنبي في هذه القصيدة عن مشاعره وإحساساته، وبيّن ما في نفسه في صراحة وصدْق، على إن النوروز خيْر صلة بين الأمّتين، العربية والفارسية، وشارك إخوانه الفرس وهو في أرض فارس بهذا العيد السعيد.

والصنوبري شاعر الطبيعة، صوّرجمال الربيع في أروع قصيدة أنشدها في وصْف الربيع بقوله:

ما الدَّهرُ الاّ الرّبيعُ المُستَنيرُ إذا
أتى الرّبيعُ أتاك النوّر والنوُر
الأرضُ ياقوتةٌ، والجوُّ لؤلؤةٌ
والنبتُ فيروزجٌ، والماءُ بلوّرُ
ما يُعدمُ النبتُ كأساً من سحائبه
فالنبتُ ضربان: سكرانٌ ومخمورُ
تظلُّ تنشُر فيه السُّحبُ لؤلؤَها
فالأرضُ ضاحكةً، والطير مسرورُ
حيث التفتَّ فقمريٌّ وفاختةٌ
فيه تغنّي شفنينٌ وزرزورُ
إذا الهزاران فيه صَوَّتا فهما السّـ
ورنايٌ، بل عودٌ وطنبورُ
تبارك الله أحلى الرَّبيعَ فلا
تُغرَر فقائسُهُ بالصَّيفَ مغرُور
مَن شَمَّ ريحَ تَحّياتِ الرّبيع يَقُل
لا المسْك مسْك ولا الكافوُر كافورُ.

هذه القصيدة رسمتْ صورة الربيع في غاية الجمال والإبداع، إذ يرى الشاعر أنّ يد الربيع هي التي رسم هذه اللوحة الفنية الجميلة، وأخرجها للعيان، كما أنه يعتقد أنّ الأرض من كثرة الشقائق، والبراعم التي تتفتح كل يوم فأصبحت كالياقوت، ورفعت السماء حجاب وجهها، وأظهرت جمالها الذي هو كاللؤلؤة البيضاء، وتحوّلت الأعشاب من أصفر إلى احمرار، عندما أعاد الربيع إليها دم الشباب المُورِق الجميل، وذابت الثلوج من قمم الجبال، وجرت في الأنهار والوديان كالبلورمن شدّة هيجانها وجريانها، والريح الربيع جعلت الزهور والورود في حالة النشوان والسكران، وشاركت الطيور

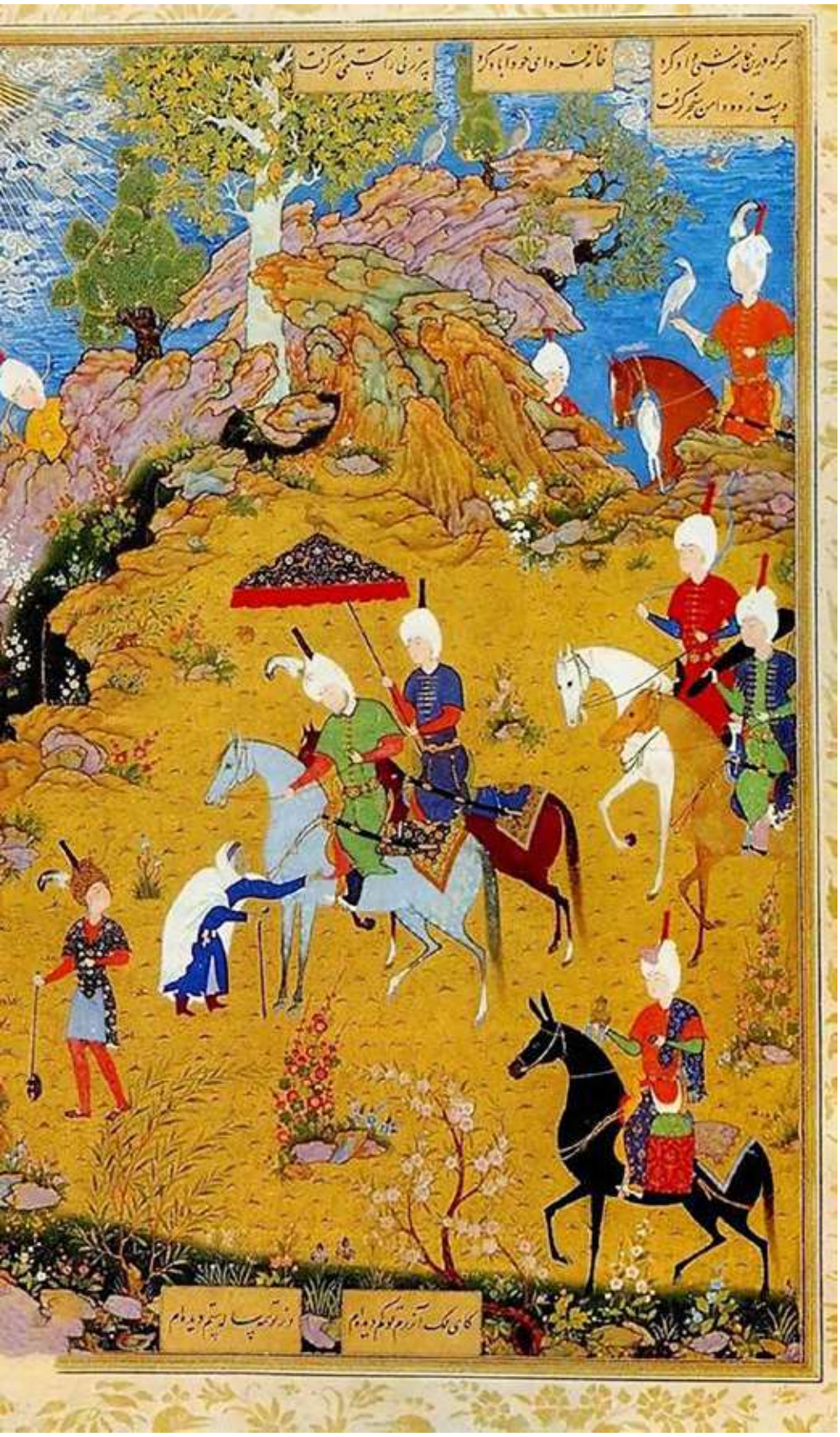

أفراح الطبيعة، وجدّدت نشاطها وأنشدت أعذب ألحانها بهذه المناسبة السعيدة. فالنوروز حوّل الصحراء إلى جنة وحلّ على الكون والانسان، مبشّراً الجميع بالخير والسعادة والمحبة والتجدد، ووصف أبو نؤاس جمال الربيع، ومجالس جماعات الشاربين تحت باقات من الزهور، فقال:

يُباكرُنا النُّوروزُ في غَلَسِ الدُّجى
بنورٍ على الأغصانِ كالأنجم الزُّهرِ
يلوحُ كأعلامِ المطارفِ وشيُهُ
من الصُّقر فوق البيضِ والخُضر والحُمرِ
إذا قابَلَتْهُ الريّحُ أومأ برأسِهِ
إلى الشَّربِ أن سُرُّوا ومالَ إلى السُّكر
ومسمعةٍ جاءَت بأخرَس ناطقٍ
بغيرلسانٍ ظلّ ينطقُ بالسّحرِ
لتبديَ سِرّ العاشقين بصوتِهِ
كما تنطِقُ الاقلامُ تجهر بالسَّرِّ
تَرى فَخُذ الألواح فيها كأنّها
إلى قَدَم نيطَت تضجُّ ألى الزَّمرِ.

إن اهتمام الملوك والخلفاء والأمراء بالنوروز عبر التأريخ، كان من أجل عامله الاقتصادي الذي ساهم في زيادة الأموال والواردات التي كانت تُغدق على خزانة الدولة، فقد اتّخذ الشعراء في العهد العباسي من هذه المناسبة، فرصة سانحة لاظهار الولاء للممدوحين (خلفاء، أمراء، ولاة، وزراء) وعهدوا إلى المقارنة بين الممدوحين ومظاهر الطبيعة عبْر استذكارهم بعطاء الطبيعة في إشارة إلى دفْع الممدوح ليُمثّل بالطبيعة، فيجزل العطاء للشاعر، وإنّ استيفاء الخراج والضريبة في يوم النيروز، علامة جليْة لسِعة المُلْك وقوة السلطان، حيث يتمثّل الأمر كل الاجناس عرباً وعجماً وكُرْداً وفرْساً، فتُدفع أموال الخراج وضريبة النوروز لتملأ خزائن الخلافة، فيُصوّر الشاعر كل ذلك على أنه دليل على حب الرعيّة من جهة، ومهابة الخليفة والخلافة من جهة أخرى، فأهمية النوروز الاقتصادية في العصر العباسي، ومحاولات الخلفاء لتثبيت النوروز في يوم مناسب لأخذ الأموال والضرائب من الأرض الزراعية وهدايا النوروز، وسُنّة تقويم الهدايا التي كانت جارية في زمن الأكاسرة، أُحيت من جديد في العصر العباسي، فالخلفاء والوزراء والأمراء ورجال الدولة، كانوا يعيشون عيشة الأكاسرة، ويأخذون التقاليد والعادات الفارسية التي تميّزت بها الحياة الاجتماعية الفارسية القديمة.